القدّيس انطونيوس رسول المحبّة

الأب نجيب ابراهيم الفرنسيسكاني

فهي الدافع الأساسيّ لكلّ عمله الرسولي في الوعظ والكتابة، والاساس لدرس الكتاب المقدّس والتأمّل به.

علّمنا يسوع أن نصلي بثقة وتواضع. ولكن ماذا يجب أن نطلب منه؟ يمكن أن نطلب الكثير بشفاعة القديس أنطونيوس ونحن نؤمن أنّه يصنع العجائب لخلاصنا. ولكن قدّيس العجائب يعلّمنا أن نطلب فوق كل شيء امرا واحدا. أطلبوا المحبّة: «لأن كل ما هو خارج عن محبّة الله هو لا شيء». كل شيء ينتهي، وحدها المحبة باقية لأن الله محبة.

البحث عن مفهوم المحبة في تعليم القدّيس انطنيوس هو بمثابة قراءة لكلّ ما كتب وإصغاء لمجمل مع علّم. جلّ ما كان يصبو إليه هو إدخال المحبة إلى قلوب الناس من خلال الوعي لمحبة الله الآب لنا التي تجلّت بيسوع المسيح وبعمل الروح القدس في الكنيسة.

تحتوي العظة الأولى للاحد الاول بعد العنصرة تعليماً متكاملاً عن المحبة. في معرض تفسيره لقراءات اليوم: مثل الغني ولعازر (لوقا ١٦: ١٩ – ٣١) وقول يوحا الرسول «الله محبّة» (١يوحنا ٤: ٨)، يشرح القدّيس أنطونيوس مفهوم المحبة بعظة خاصة:

«واحدة هي المحبّة التي نحبّ بها الله والقريب، فالمحبّة هي الروح القدس لأنّ الله محبّة» (بطرس لومباردو). شريعة المحبّة هذه، كما يقول أغسطينوس، موضوعة من الله حتى تحبّه لذاته ومن كلّ قلبك، وأن تحبّ القريب كنفسك. ذلك أنّه يجب أن تحبّ نفسك محبّة بالله

وبالقريب. القريب هو كلّ انسان، لأنّه لا يمكن أن يكون هناك من يجب أن تتعامل معه بالشر.

ما أعظم محبة الله الآب لنا! لقد أرسل ابنه الوحيد (١يوحنا ٤ : ٩) حتى نحبّه فنحيا به وله ولا نموت لأنّ الحياة بدونه موت: «من لا يحبّ بقي رهن الموت» (١يوحنا ٣ : ١٤). وبما أنّ الله أحبّنا حبّا عظيماً حتى أنّه جاد بابنه الوحيد، الّذي به خلق الكون، يجب علينا أن يحبّ بعضُنا بعضاً: «أُعْطيكم وَصِيَّةً جَديدَة: أَحِبُّوا بَعضُكم بَعضاً. كما أَحبَبتُكم أَحِبُّوا أَنتُم أَيضاً بَعَضُكم بَعْضاً» (يوحنا ١٣ : ٣٤). وبما أنّ الغنيّ كان يلبس الأرجوان ولا يحفظ الوصيّة بقي رهن الموت وقُبر حيّا لأنّه لم يحبّ الحياة التي هي حبّ. خطئ لأنّه قَلَبَ سلّم القيم في الحبّ.

يقول أغسطينوس: «يجب أن نحبّ أربعة أشياء: الأول، من هو فوقنا أي الله والثاني أنفسنا والثالث القريب والرابع الجسد. أحبّ الغني قبل كلّ شيء جسده غير آبه لله ولنفسه وللقريب، لذلك نال الهلاك. يجب وضع الجسد في المرتبة الرابعة للحبّ: لا مثل الذين يحيون للجسد، بل لأنّنا بدونه لا نستطيع أن نحيا. من الحياة البائسة بالجسد سار بنا إليه، من هو الحياة والذي يحيا إلى الأبد. آمين» (العظات ٣٩٤ – ٣٩٥).

رموز المحبة في الكتاب المقدّس

تُحدّثُ عن طبيعتها الثنائية: محبة الله ومحبة القريب.

ينهل القدّيس انطونيوس من ينابيع الكتاب المقدّس وتقليد آباء الكنيسة في وصفه لمحبّة الله والقريب. من بين النصوص الكثيرة يتأمّل في حلم يعقوب (تكوين ٢٨) الذي يمثّل «البار خلال مسيرة حجّه، الرازح تحت عبء الكثير من المصاعب». رأى يعقوب في الحلم سلّما منتصباً على الأرض ورأسه يلامس السّماء. هذا السلّم المنتصب يرمز إلى محبّة الله والقريب والملائكة هم الأبرار الّذين يصعدون إلى الله بارتفاع العقل وينزلون نحو القريب شفقة بالنفس. الله في علاه يسند السلّم ويستقبل الصاعدين عليه. ذلك أنّه يحمل ضعفنا حتى يكون باستطاعتنا الصعود إليه باعمال المحبة. ويستقبل الصاعدين ليشركهم بسعادة الحياة الابدية. في وليمة السماء هذه سوف نرتاح نحن ايضا مع يوحنا الانجيلي على صدر يسوع. القلب في الصدر كالحب في القلب. في ذلك الحين نرتاح في حبّه لأنّنا سوف نحبّه من كلّ قلبنا وكلّ نفسنا وفيه نجد كلّ كنوز الحكمة والمعرفة.

يا حبّ يسوع! ايها الكنز المحجوب في الحبّ! ايتها الحكمة التي لا مثيل لمذاقها والمعرفة

التي تعرف كلّ شيء. (ر. العظات ٩٦٤ – ٩٦٥).

محبّة الله

هي الدافع الأساسي للمحبة الأخوية. هذا ما يؤكدّه القدّيس انطونيوس عندما يفسّر كلمة «محبة» في اللاتينية «ديلكسيو» الصادرة عن فعل الربط بين شخصين. يبدأ الحبّ بين شخصين: الله والقريب.

اسم الله «الرب» أي سيّد كلّ الخلق. وهو يرى كلّ شيء ويعرف كلّ شيء. محبّته واسعة ومسامحته عظيمة. هذا الإله يجب أن يُحبّ. «أحبب الرّبّ إلهك من كلّ قلبك». يقول «إلهك»، أي ما يخصّك والإنسان يحبّ ما هو له أكثر من أي شيء آخر. يجب أن تحبّه لأنّه الله والرّبّ الّذي تنازل وصار بصورة العبد من أجلك لتصبح له ولا تستحي من خدمته. صار الله عبداً لك لمدة ثلاثة وثلاثين سنة بسبب خطاياك، ليحرّرك من عبودية الشرّير. أحبب إذا الرّبّ إلهك الذي خلقك وصار بكلّيته لك وأعطى ذاته لك لتهبه ذاتك بكلّيتها.

في الخلق، عندما لم تكن في الوجود، منحك ذاتك. في الفداء، عندما كنت في الشر، منحك ذاته لتكون في الخير، وعندما وهبك ذاته، ردّك إلى ذاتك. أنت إذا هبة الله مرتين، في الخلق وفي الخلاص، لا بل كلّ ما أنت عليه هبة منه. أحبب إذا الرّبّ إلهك من كلّ قلبك. لذلك يجب أن تقدّم لله ذاتك بكلّيتها ولا تبقي لنفسك شيئاً. إذا أبقيت بعضاً منك لك لن تصبح له بل لذاتك. هب كلّ شيء له لتكسب الله وتربح ذاتك بكلّيتها (العظات ٦٤١ – ٦٤٢).

ومن ثمّ يتابع القدّيس انطونيوس عرضه للموضوع بأبعاده التطبيقية فيشرح معنى محبّة الله بالقلب والنفس والقوة. يتعلّم الإنسان هذه الامور بواسطة طبيعة جسده عندما يعتبر مكان القلب في وسط الصدر بين الثديين، اللذين يمثّلان تجسّد الرّبّ وآلامه. بين هذين السرّين مكان القلب، فلا تُقدم على أي شيء في حياتك بدون الرجوع إلى فقر وتواضع التجسد ومرارة آلام

الرّبّ. وهكذا يرفع الإنسان كلّ أشواقه لمجد الله ليحبّ الله من كلّ قلبه، إذا كان لك على القلب من سلطة، ومن كلّ نفسك فيرجع إلى محبّة الله كلّ ما لك من حركة وفكر وحياة. وعن محبّة الله «بكلّ قوتك» يقول القدّيس أنطونيوس: «قوة النفس، أي القوة العقلية والشهوانية والغضبية. بالقوة العقلانية نميّز بين الخير والشرّ؛ بالقوة الشهوانية نصبو إلى الخير وبالغضبية ننكر الشرّ. واخيراً أن نحبّ الله بكلّ الذهن يعني بالفطنة والعقل. أحبب إذاً الرّبّ إلهك من كل ذهنك حتى تُرجع إليه كلّ ما تتذكّره وتعرفه وتفهمه (العظات ٦٤٢ – ٦٤٤).

في هذه الصفحة الرائعة نجد ما يدخل إلى اعماق الإنسان حيث تحوّل محبّة الله كلّ طبيعته ليكون باستطاعته الارتقاء من ذاته بكليّتها جسداً ونفساً إلى الله. وما يلفت النظر ما يقوله عن قوة الشهوة التي لا تعني حصراً الخطيئة، بل جلّ ما يجب على الإنسان فعله هو توجيه هذه الشهوة نحو محبّة الله، حتى أنّ للغضب والعداوة مكان في هذه المسيرة الروحية عندما يحارب بها الإنسان الخطيئة. وعن محبّة الله بالذهن تعليم له من الآنيّة ما يحتّم علينا إلقاء الضوء عليه، إذ تعلّم الكنيسة اليوم وتشدّد على أهميّة اتفاق العقل مع الدين. لتَسبر محبّةُ الله لفائف الذاكرة وتنير العقل وتُلبس الفهم معاني الحقيقة.

ينتمي انطونيوس إلى مدرسة القدّيس فرنسيس الروحيّة لذلك يجعل من سرّي التجسّد والآلام غذاء لنمو المحبّة قي قلب الإنسان. وكلّنا يعلم ما كان لهذين السرّين من دور في حياة فرنسيس الأسيزيّ حتى أنّ اسمه ارتبط بميلاد چريتشو وجبل لاڤرنا حيث نال السمات. وفي ارتقاء الشهوة بالمحبّة إلى الله، نجد في حياة فرنسيس مثالاً لها، إذ أنشد كلّ المخلوقات لتكون سلّماً يصعد عليه إلى الله وليس هاوية تهبط به إلى عبادتها. بين هذين النقيضين يسير الإنسان في التوبة.

لا تكون المحبّة كاملة بل تنمو في الإنسان من خلال التوبة. سر بخطى الحبّ المتعبة، يقول القدّيس انطونيوس. لا ينمو الحبّ بدون روح الفقر والتجرّد والإماتة عن حبّ الذات. والتقوى تفعم قلب الإنسان بمحبّة الله. في أرض الفقر والتواضع والتنازل تعظم محبّة الله.

أما الرمز الذي يرجع إليه أكثر من غيره هو النار: «النار صورة لمحبّة الله بثلاث صفات: حرارة التواضع، بهاء العفّة وخفّة الفقر». يفسّر انطونيوس آية من سفر دانيال: «وبَينَما كُنتُ أَنظُر إذ نُصِبَت عُروش فجَلَسَ قَديمُ الأَيَّام وكانَ لِباسُه أَبيَضَ كالثَّلْج وشَعَرُ رَأسِه كالصُّوفِ النَّقيّ وعَرشُه لَهيبَ نار وعَجَلاتُه ناراً مُضطَرِمَة» (دانيال ٧: ٩). عرش الله هم أولئك الّذين يعيشون متّحدين في مكان واحد ويخدموا الله. في قلوبهم المطمئنّة يسكن الله. حقّا يوصفون بالنار المستعرّة، إذ يشتعلوا بمحبّة الله والقريب والشوق إلى الوطن السّماويّ. وما يُشعل نار المحبّة تجاه

الله والقريب هو الندامة والاعتراف.

لا تنفصل محبّة الله عن محبّة القريب لذلك يستشهد القدّيس انطونيوس بالبابا غريغوريوس القائل: «تتسامى المحبّة عندما تبحث بتقوى عن القريب البائس؛ وعندما تنزل إلى الأشياء الوضيعة ترجع بعدها باندفاع اكبر الى الأشياء السامية». تعمل المحبّة على تحقيق الصلاة الدائمة. كذلك تضيء شعلة المحبّة النور للآخرين.

تتّحد المحبّة بمخافة الله

حتى يكون باستطاعة المؤمن الارتفاع نحو يسوع المسيح. هكذا يفسّر انطونيوس الآية الخامسة من المزمور ١٠٣ (١٠٢): «يُشبعُ سِنيكِ خيرًا فَيَتَجَدَّدُ كالعُقابِ شَبابُكِ». للعقاب جناحان وللبار جناحان، المحبّة ومخافة الله، ليحلّق نحو يسوع المسيح (العظات ٧٩ – ٨٠).

المحبّة ومخافة الله هما كالعاملَين اللذين يذهبان إلى الكرم في الصباح الباكر فيربّيا الإنسان على حرية أبناء الله. يتطّرق القدّيس انطونيوس لهذه الفكرة في الاحد الخامس عشر بعد العنصرة:

«ضع محبّته فوق كلّ محبّة، إذ بدون محبّته لا يكون الحبّ سوى وجع.

أيتها العبودية الحرة والحرية المستعبدة!».

في المفارقة بلاغة! ليست المخافة، هي التي تجعل الانسان عبداً والمحبّة حرّاً، بل المخافة تحرّر والمحبّة تستعبد. تجدر الإشارة على أنّ مخافة الله هي مرادف للإيمان بالله في مفهوم الكتاب المقدّس. يقول انطونيوس: «ما كانت الشريعة للبار (١تيموطاوس ١: ٩)، لأنّه شريعة لذاته (راجع روما ٢: ١٤). لديه المحبّة ويحيا بتوجيه العقل، لذلك يذهب حيث يشاء ويعمل ما يشاء. «أنا – يقول النبيّ – عَبدُكَ وابْنُ أَمَتِكَ. لقد حَلَلتَ قُيودي» (مزمور ١١٦: ١٦). انتبه للكلمات: عبد وابن، لا بل عبد إذاً ابن. أيّتها المخافة الطيّبة التي تجعل من العبد ابناً! أيّتها المحبّة الحقيقية والخيّرة التي تجعل من الابن عبداً!» (العظات ٦٩١ و٦٩٤).

سبر القدّيس انطونيوس عمق فضيلة المحبّة الإنجيلية

فأعطانا تعليماً متكاملاً يختلف ربما عن المفهوم السائد عن الحبّ. ذلك أنّه يربط الحبّ بالايمان بالله. أنت تحبّ كما تؤمن! من هو الله في ايمانك؟ كيف كشف عن ذاته؟ يجيب انطونيوس على هذه التساؤلات قائلاً أنّ الحبّ هو قبل كلّ شيء حب الله لنا، إذ خلقنا وخلّصنا فصار المسيح بسرّ تجسّده وموته غذاء كلّ حبّ.

وما يدهش العقول هذا الربط بين اسم الله «الربّ» وبين المحبّة. سيّد الكون تنازل وصار بالمحبّة بصورة العبد ليحرّر الإنسان من عبودية الخطيئة. ترتبط حرية الإنسان بمحبّة الله، لذلك عليه أن «يخاف الله»، أي أن يؤمن به. هذا الإيمان يحرّر الإنسان من عبودية الخطيئة. ولكن على الإنسان أن يبادل الله الحبّ فيصبح بدوره «عبداً»، خادماً بالمحبّة لله وللقريب. في كلّ هذه الكلمات يبدو وكأنّ انطونيوس يكتب سيرة المسيح ويلقي الضوء على سرّ شخصه، ابن الله الّذي أحبّ خاصّته حتى النهاية، فصار الحبّ لقاء به واقتفاء بآثاره.

سِرْ أمامي
وها أنا وراءك

هذا ما قاله الرب ليشوع عندما دخل أرض الميعاد بعد موت النبي موسى.
وهذا ما يقوله يسوع الربّ لكلّ واحد صمّم أنْ يثق به، ويستسلم لتدبيره.
وحقيقةً إنْ كنتَ حاضراً يا يسوع، فكلّ شيء مُستطاب؛ وإنْ غبتَ، أصبح كلّ شيء مُضجراً.
أنت يا ربّ تجعل القلب مطمئنّاً، وتخوّله سلاماً عظيماً، وفرح أعياد.
أنت يا يسوع تجعلنا نستحسن كلّ شيء، ونسبّحك في كلّ شيء.
لا شيء يمكن أنْ يلذّ بدونك، زماناً طويلاً.
فلكي يكون الشيء مستحبّاً ومستطاباً، يلزم أنْ تصحبه نعمتك.
من يلتذّ بك، أيّ شيء يمكنه أنْ يروق في عينيه؟
أيّها النور الدائم، الفائق جميع الأنوار المخلوقة، أبْرِق من علوّكَ شعاعاً، لينفذ إلى صميم قلبي. طَهِّرْ، فَرِّح، أحْي روحي مع جميع قواها، لكي تتّحد بك بانخطافات مُطّربة.
آه! متى تأتي تلك الساعة السعيدة الشهيّة التي فيها تشبعني بحضورك، وتكون لي «كُلاّ في الكل» (١ كور ١٥ : ٢٨).

والأحسن

في هذا الموضوع، مطالعة كلّ الفصل الثامن، من السفر الثاني، من كتاب "الاقتداء بالمسيح".